الظالمة في الثمانينيات (على امتداد ثلاث سنوات طويلة: 1985-1988، فيما عُرف بـ«حرب المخيّمات» فيما كان يجب أن تُسمّى بـ«الحرب على المخيّمات») لحساب النظام السوري. لكن المعارك والبطولات الدونكيشوتيّة ضد المخيّمات لم تنتهِ، إذ إن الجيش اللبناني (المُتسلّح بعقيدة قتاليّة جديدة تعادي إسرائيل - أي أنها تعترف بأن الجيش اللبناني لم يكن يعادي إسرائيل على مرّ عقود التاريخ اللبناني المعاصر) فتحَ (لحساب قوى خارجيّة على الأرجح، وبحماسة مشبوهة من السفارة الأميركيّة ومن أنظمة الخليج وبتأييد أيضاً من النظام السوري) معركة «نهر البارد»، وصاحب المجزرة المهرجان اللبناني المألوف من العنصريّة والعنجهيّة الفينيقيّة.

تتحمّل كل القوى السياسيّة من دون استثناء المسؤوليّة عن بناء هذا الجدار

تتحمّل كل القوى السياسيّة من دون استثناء المسؤوليّة عن بناء هذا الجدار العنصري. هذا زرع للعقيدة والممارسة الصهيونيّة الإسرائيليّة في قلب لبنان.

وعليه، يجب أن تتوجّه الحملة المدنيّة ضد الجدار العنصري (الذي سيمتلئ عمّا قريب بشعارات عن تحرير فلسطين وعن ذم السلطة اللبنانيّة). وهذا الجدار يستحق التوأمة مع جدار الفصل العنصري في داخل فلسطين، وتستحق السلطة اللبنانيّة أن تدافع في المحافل الدوليّة عن جدار الفصل الإسرائيلي لأنها باتت متساوية في الأساليب العنصريّة القمعيّة مع العدوّ الإسرائيلي.

فات أهل السلطة الطائفيّة في لبنان أن تدرك أن جدار الفصل العنصري الإسرائيلي هو عنوان معاداة إسرائيل في الغرب، وهو يبرز دوماً في الملصقات المُنادية بالمقاطعة وفي المؤتمرات المعادية لاحتلال فلسطين والأراضي العربيّة. إن هذا الجدار سيصبح مادّة دسمة ومفيدة في الدعاية الصهيونيّة حول العالم لأنها ستبرز صور الجدار اللبناني كإسناد لحجّتها بجدوى الجدار في فلسطين المحتلّة وموافقتها مع المعايير الإنسانيّة. لا يمكن أن يتوقّع المرء من الدولة والمجتمع في لبنان حساسيّة نحو الشعب الفلسطيني بعدما كان لبنان أسوأ دولة في معاملة الشعب الفلسطيني بين الدول العربيّة (يُراجع كتاب لوري برند عن «الفلسطينيّون في العالم العربي»، وكتاب ريكس برَينن عن «المأوى والنجاة: منظمّة التحرير الفلسطينيّة في لبنان»). وتزامن نصب الجدار مع طرد لاجئين سوريّين من عكّار، في أجواء صارخة في عنصريتها ضد الشعب السوري والفلسطيني.

لا يُعوَّل على ما يُسمّى اعتباطاً بـ«المجتمع المدني» في لبنان. إن هذه المنظمّات في لبنان والعالم العربي، لأسباب بنيويّة وتمويليّة، لا تتحرّك ولا تنشط تحت عناوين لا تتوافق مع أجندة ما يُسمّى «اعتباطاً أيضاً» بـ«المنظمّات غير الحكوميّة» الغربيّة والتي ترعى وأحياناً تُسيّر الكثير من منظمّات «المجتمع المدني». إن هذا المجتمع يتحرّك بقوّة وسرعة في قضيّة وقوع ضحايا من الغربيّين، مثلما اندفع ناشطون وناشطات إلى ساحة بيروتيّة يهتفون بحياة الرجل الأبيض ويقفون وراء السفير السعودي الذي قادهم في معركة الدفاع عن حريّة الغرب في إهانة الإسلام والمسلمين. كما أن الشباب اللبناني تفجّع على مدى أشهر في قضيّة «جو سوي» الفرنسيّة، فيما هو لم يصبح «جو سوي» عندما يكون الضحايا من الملوّنين حول العالم. هؤلاء لا يُعوّل عليهم في قضيّة تمسّ حريّة وسلامة وكرامة المخيّمات الفلسطينيّة. هؤلاء يتحرّكون للغناء والرقص والتهريج من أجل «السلام» في مشاريع للأمم المتحدة (والسلام المُموّل من دول الغرب والأمم المتحدة لا يعني إلا السلام مع العدوّ الإسرائيلي).

والفصائل الفلسطينيّة في المخيّمات مشاركة في هذه المؤامرة. وحركة «حماس» وحركة «فتح» باتتا ممثّلتيْن لدول خليجيّة في المخيّمات. «حماس» و«فتح» تنتميان إلى منظومة أنظمة الخليج أكثر مما تنتميان إلى الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة. لكن كان الأمل معقوداً على الفصائل الفلسطينيّة الحرّة التي لا تنتمي إلى المنظومة الخليجيّة المتحالفة جهاراً مع دولة العدوّ الإسرائيلي. والرفيق مروان عبد العال من الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين لم يعطِ أجوبة شافية ومقنعة في مقابلة مع «وكالة وطن» عن الجدار، إذ قال بالحرف عن أسباب تشييد الجدار: «إن هذا السبب إن كان مُحقّاً إلاّ أنه ليس كافياً ليكون مُقنعاً وخاصّة عندما يكون مفعوله إيجابيّاً». يحتاج الموقف الفلسطيني الحرّ إلى وصف أقوى وأشدّ من هذه العبارات (ويحتاج المرء إلى منجم مغربي لفك طلاسم عبارات عبد العال). إن تمرير هذا الجدار سيتبلع جدراناً حول كل المخيّمات الفلسطينيّة، وقد يأتي يوم تبني فيه السلطة في لبنان جدران فصل طائفي حول أماكن إقامة الطوائف الصغيرة المفتقرة إلى حمايات أجنبيّة.

لكن ماذا عن الشعب الفلسطيني في مخيّم عين الحلوة وفي باقي المخيّمات؟ كيف يستكين وكيف يسمح للسلطة القمع اللبنانيّة (المرتهنة للخارج) بوضع رمز إسرائيلي حول مخيّم فلسطيني؟ الذين علّموا الشعب اللبناني الثورة باتوا هم يحتاجون إلى تلقّي دروس في الثورة والتمرّد؟ أم أن محمد دحلان (ومَن وراءه في دول الخليج) فرض سلطانه وقيّمه على أهل المخيّمات؟ إن بقاء هذا الجدار هو تكريس لشبهة التعاون اللبناني الرسمي مع العدوّ الإسرائيلي. ولماذا يصمت فريق مقاومة العدوّ الإسرائيلي عن الجدار؟ إن الإصرار على الحفاظ على ضابط في أمن المطار دفع حزب الله إلى زلزلة الأرض تحت أقدام خصومه، أفلا يحتاج العداء لإسرائيل إلى أن تتزلزل الأرض تحت هذا الجدار، وتفتّته؟ إن الطريق إلى مواجهة العدوّ الإسرائيلي والدفاع عن أبسط الحقوق الإنسانيّة للشعب الفلسطيني في لبنان تمرّ عبر هدم هذا الجدار، فمَن يبادر إلى هدمه يا ترى؟

* كاتب عربي (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)

تجذير المواجهة وتحسين شروطنا

سعدالله مزرعاني *

سواء كان الحريق الذي اندلع في بعض أنحاء الكيان الصهيوني مفتعلاً أو غير مفتعل، ومهما ارتفعت الخسائر المباشرة أو غير المباشرة الناجمة عنه، فلن يغيّر ذلك جوهرياً في الاستنتاج الذي أعلنه رئيس وزراء العدو بنيامين نتنياهو، في المؤتمر السنوي الدبلوماسي السادس الذي نظمته جريدة «جيروزاليم بوست» قبل أيام في القدس المحتلة (بُعيد اندلاع الحرائق، من دون أن تكون هناك علاقة بين الحريق والمؤتمر). قال نتنياهو: «أنا مليء بالأمل بشأن إسرائيل، بشأن المنطقة، بل وبشأن الأمم المتحدة. فإسرائيل تعيش وسط ثورة تاريخية في مكانتها بين الأمم. هناك تغيير عالمي سريع، هناك ثورة معلومات تكنولوجية، ونحن في مركزهما. هناك فرص أمنية كثيرة، وهذا يغير الطريقة التي تتعامل بها أمم معنا ونحن معها».

لا شك أن في هذا الكلام الكثير من الانتصارية. له أيضاً جانب دعائي على لسان المسؤول الأول في دولة العدو. وقائله يسعى، بكل الطاقة والأساليب (بما فيها المبالغة والكذب الذي اشتهر به)، إلى تجديد ولايته في الانتخابات البرلمانية المقبلة. لكنّ في ذلك، أيضاً، جانباً لا يستهان به من الحقائق. وكذلك، خصوصاً، من الاستشراف والاستنتاج والاستعداد.

لم تغب هذه الميزات يوماً عن المؤسسين الأوائل للمشروع الاستيطاني الصهيوني، ولا عمن واصله، بالقهر والتشريد والعدوان، من بعدهم. هذا أحد أسباب نجاح المشروع: في الماضي وكذلك في الحاضر... وحتى سلوك أو إشعار آخر من قبل خصوم هذا المشروع الإجرامي وضحاياه!

لا شك أن نتنياهو يتحدث عن نتائج ما يجري في المنطقة من احتراب وقتل واقتتال ودمار وخسائر. هو يعبّر عن سعادته وهو يرى دولاً، رفعت دائماً شعار قتاله من أجل تحرير فلسطين وعودة شعبها إلى وطنه وأرضه، تتخبط في دماء وأزمات لا تنتهي. ثم هو يشعر بكثير من الارتياح، أيضاً، لأنه لعب دوراً مهماً في التحضير لهذه الأزمات وفي تعميقها وفي استعصائها، بما يجعله صاحب «حق» طبيعي في استثمار نتائجها، أي كوارثها، على أعدائه، الى الحد الأقصى.

ينبغي أن نضيف بأن المسؤول الأول في إسرائيل يشعر بالرضى الكامل، أيضاً وأيضاً، لأنه قد حلّ في مركز القرار في واشنطن، حامية الكيان الصهيوني وداعمته، دونالد ترامب بديلاً لرئيس لم يبادله يوماً الودّ ولا الأولويات: لا بشأن الوضع العربي والفلسطيني، ولا بشأن إيران ودورها ومشروعها النووي، ولا بشأن أسلوب التعامل مع كل ذلك.

بعد تدمير العراق بقدراته ومقدراته الهائلة ومخزونه القومي المميز على يد الجيش الأميركي عام 2003 (ومن ثم إغراقه في أزمات حكم مقرونة بانقسام وصراع داخليين)، كان استهداف سوريا. الهدف أيضاً تدمير قدراتها وسياساتها وتحالفاتها، وخصوصاً ما هو منها موجّه ضد المشاريع المشتركة الأميركية والصهيونية. امتدت الأزمة السورية وتعمّقت وعظمت محنها وخسائرها بسبب اختلاف المواجهة هناك نتيجة صمود النظام السوري. ثم بسبب قدرته، اعتماداً على ذلك، على بناء تحالفات إقليمية (إيران) ودولية (روسيا)، ما مكنه، ولو بثمن باهظ بكل المقاييس، من استعادة زمام المبادرة من خصومه المحليين والخارجيين. يمكن الاسترسال في إبراز ما هو قائم حالياً، في كل من سوريا والعراق، من تقدم لمصلحة النظامين السوري والعراقي. لكن ذلك لا ينبغي أن يحجب الحجم الكبير، بل المروّع من الخسائر التي أصابت البلدين ودورهما في المنطقة والعالم، وخصوصاً في التأثير في الصراع العربي الإسرائيلي.

هنا وهناك، أي في كل من العراق وسوريا، جرى استثمار واستغلال مطالب وحقوق شعبية مشروعة، وخصوصاً في مجال ممارسة القمع والاستبداد وملاحقة المعارضين والاستئثار بالسلطة. لكن ذلك حصل وفق مبدأ: كلمة حق يُراد بها باطل.

كانت استفادة العدو الصهيوني هائلة: لم يتأخر لحظة واحدة في تشديد قمعه للشعب الفلسطيني، وفي التوسع في الاستيطان الى حدود وبوتيرة غير مسبوقين. طوّر العدو من استغلاله للصراع: لتطبيع علاقاته مع المزيد من الدول والحكام في المنطقة والعالم، ولتشويه طبيعة الصراع في المنطقة وتصويره صراعاً عربياً فارسياً وتقديم نفسه حليفاً وحامياً للعرب. رفض كل الاقتراحات بشأن الموافقة على مفاوضات تستند إلى الحد الأدنى من قرارات الشرعية الدولية، أي من الاعتراف ببعض ما نصت عليه تلك القرارات من إقامة دولة خاصة بالفلسطينيين، وفق القرار 242، وعاصمتها القدس...

ليس الوضع على الضفة العربية على هذا النحو، من القدرة على التوحد، ومن تعبئة القدرات، وتوظيف نقاط القوة وتطويرها، والتخلص من نقاط الضعف... لقد حصلت تضحيات كبيرة. في أماكن ومناسبات متكررة، حصلت بطولات في مواجهة أعداء وقوى وأساليب غير مسبوقة في ممارستها للإجرام والتدمير. لكن يجب القول إن ذلك قد افتقر دائماً إلى خطة شاملة ومدروسة ومثابرة. هذا في ما يتعلق بالقوى المستهدفة والمنخرطة في الصراع. أما القوى الأعرض والمستهدفة بشكل خطير، ولو غير مباشر، فقد كانت غائبة أو مغيبة بسبب سوء علاقة أو سوء تقدير أو سوء أساليب... ليس هذا فحسب، بل إن قوى منخرطة في الصراع ضد مشاريع الهيمنة الخارجية والصهيونية استدرجت الى ممارسات لا يستفيد منها، في نهاية المطاف، إلا دعاة تفتيت المنطقة بالحروب الأهلية وبالصراعات الإتنية والطائفية والمذهبية.

إنّ تحسين برامج المواجهة وشروطها وأساليبها وخططها، في مجرى الصراعات الطويلة خصوصاً، أمر جوهري لتوفير فرص أكبر للانتصار ولتقليص الخسائر. هذا ما ينبغي الالتفات إليه اليوم قبل الغد. ولا ينبغي أن يقتصر ذلك على قوى ومجالات محدودة، بل يجب أن يتناول كل الحقول الضرورية وكل القوى المعنية مصيرياً بالصراع وذات المصلحة في منع العدو من تحقيق أهدافه. لا بد من أجل ذلك من عقد لقاءات ومؤتمرات صريحة وواسعة التمثيل وجدية المشاركة من حيث الكفاءة والإخلاص. إن بلورة مفاهيم جديدة لأمن المنطقة وللدفاع عن مصالحها ولسلامة الأساليب والعلاقات... هي أمور في غاية الأهمية لأن الصراع طويل ولأننا محكومون بالتضحيات وبالكفاح من أجل الدفاع عن مصالحنا ووجودنا.

* **كاتب وسياسي لبناني**